جهود الباحثين فى خدمة المخطوط العربى فى الجزائر

عصام محمد الشنطى
خبير بمعهد المخطوطات العربية ، مدير سابق

(١)

تمهيد:

إلى أن تحررت الجزائر الغالية ، وأعلنت استقلالها فى اليوم الثالث من شهر يوليو (تموز) ١٩٦٢م ، كان الغموض يكتنف معلوماتنا عن مخطوطات هذا القطر . وكان المعلن منها هو ما تحتويه المكتبة الوطنية فى الجزائر العاصمة ، والفهرس الذى أنجزه المستشرق الفرنسى إدمون فانيان باللغة الفرنسية ، وطبع فى باريس سنة ١٨٩٣م[١] . وبعض المحاولات الأخرى المحدودة للكشف عن المخطوطات ، قام بها مستشرقون فرنسيون ، وعلماء جزائريون ، نذكر منهم محمد بن أبى شنب ؛ الذى فهرس مخطوطات الجامع الكبير فى الجزائر العاصمة باللغة الفرنسية ، وطبعه فى الجزائر سنة ١٩٠٩م ، وصف فيه ١٠٦ مخطوطاً .

ولا شك فى أن هذا الغموض والتعتيم ينصرف إلى فترة الاحتلال الفرنسى الذى حرق كثيراً من المخطوطات . وفى عهده نُقل كثير منها إلى باريس ، وبعض المكتبات الأوروبية الأخرى . وفى الذاكرة مكتبة الأمير عبد القادر التى نُقلت إلى فرنسا .

وخرج كثير منها مع المهاجرين الجزائريين إلى تونس والمغرب خاصة . غير ما دُفن فى جوف الأرض خشية المحتل ، فتلف من جراء هذا الحفظ الخاطىء ، وقبل ذلك نذكر ما نُقل إلى استانبول إبان الحكم العثمانى .

وكان دافع المحتل لهذه الأعمال الاستفادة مما فى هذه المخطوطات ، والقضاء على الثقافة العربية الإسلامية فى الجزائر ، وتعريته منها ، وإحلال لغته وثقافته بُغية جعل القطر فرنسياً ، وسلخه من جذوره وأصوله .

وكنا دائما نتساءل أين مخطوطات هذا القطر الذى تعاقبت عليه دول وحكومات شجعت العلم ، ونشطت حركة الثقافة ، كبنى رستم ، والفاطميين ، والحماديين ، والموحدين ، وبنى زيان والعثمانيين . هذا فضلاً عما تتمتع به الجزائر من موقع عبقرى ، فى طريق الحاج ، وطلب العلم من الأندلس والمغرب الأقصى إلى المشرق ، وعند العودة . وكذلك الطريق إلى إفريقيا عبر هذا القطر . الأمر الذى خلق حركة دائبة للمخطوطات العربية يُعد الجزائر طرفاً فاعلاً فيها .

وبالرغم من عمق هذه المحنة التى تعرضت لها المخطوطات ، فإن الباحثين بعد الاستقلال ، ونشأة دولتهم ذات السيادة ، أخذوا يبذلون الجهود للكشف عما تبقى منها ، فإذا به كثير كثير ، فى كميته ، وفى قيمته ونفاسته . ولا نبالغ أنها بالآلاف ، فى الشمال والجنوب ، وفى الشرق والغرب ، فى مكتبات عامة وخاصة ، وفى الزوايا ، على نحو ما نبين بعد قليل .

(٢)

البحوث:

لقد جمعتُ الأعمال التى قام بها باحثون جزائريون وغيرهم – منذ الاستقلال إلى يومنا هذا– فوجدتها تسعة وعشرين ، نظمتها فى ثبت بترتيب تاريخ نشرها ، وأثبته فى ذيل هذا البحث . ولا أستطيع أن أزعم أنه قد ضم كل الأعمال . لكنه بلغ مقداراً يجعل دوران البحث عليه مأمون النتائج ، ويخلص إلى صورة صادقة لأوضاع المخطوطات فى أيامنا هذه .

ظهرت هذه البحوث فى الثبت على هيئتين مختلفتين . الأولى فى شكل كتاب ، أو جزء من كتاب ألف ، أو ضم بحوث ندوات وملتقيات ، عددها يقرب من نصف الثبت إلا قليلاً .

أما الباقى ، فهو فى شكل بحوث نشرت فى مجلات أكاديمية ، أو مقالات نشرت فى مجلات ثقافية متميزة .

وحين ننظر فى مضمون هذه البحوث ، نجده قد أتخذ ألواناً مختلفة ، هدفها الكشف عن هذه المخطوطات ، وقد تشعبت هذه الألوان إلى ثلاث : بحوث تذكر أماكن المكتبات المحتوية على مخطوطات ، والموزعة فى أنحاء القطر وجنباته ، وتحصرها وتحصى عددها .

وبحوث كان همها فهرسة بعض تجمعات هذه المخطوطات ، الموجودة فى أماكن متفرقة ، فى أغلبها لم نكن نسمع عنها من قبل .

وثالثها بحوث تناولت بعض هذه النسخ المخطوطة بالتحقيق ، أو بالدرس والتحليل ، أو بهما معاً .

(٣)

الأماكن:

توفرت بحوث كافية من شأنها أن تكشف عن الأماكن التى تحتوى على مخطوطات ، سواء كانت فى مراكز علمية ، أو زوايا ، أو ملكية خاصة . ونلاحظ أن هذه البحوث قد ظهرت متدرجة بالإفادة ، وأخذت فى الازدياد شيئاً فشيئاً إلى أن اتضحت معالم خريطة المخطوطات العربية فى القطر إلى حدود مرضية ومقبولة ، لا ينقصها - فى الغالب - إلا مالم نعرفه من مكتبات ذات ملكية خاصة ، ممن يخفيها أصحابها ، ويكتمون خبرها .

لقد عرفنا من البحوث أن هذا القطر زاخر بألوف المخطوطات ، فى كل ناحية منه . أما أعدادها فهى تقريبية ، خاصة فى المكتبات التى لم تخضع للفهرسة بعد . وليس من المناسب هنا عرض هذه الأماكن فى قائمة ، لأن محتوى البحوث المرصودة فى الثبت المرفق قد وفى بهذا الأمر .

وحسبي أن أذكر - على سبيل المثال - مدن وادى ميزاب فى الصحراء الجزائرية ، وهى سبع ، كانت قد نشأت نشأة إسلامية فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وقد ذخرت بالإنتاج الفكرى المودع فى المخطوطات وبلغ عدد مكتبات المنطقة نحو مائة مكتبة ، ما بين خاصة وعامة .

وقد أسس الأكاديميون والمثقفون الغُيُر جمعية للتراث فى القرارة ، بولاية فردية ، ومارست نشاطها بدءاً من عام ١٩٩٢م . وكان نشاطها ظاهرا للعيان وناجماً . بإزاء هذه المخطوطات المهملة ، عناية وتصنيفاً وفهرسة ، فى حدود الإمكانيات المتوفرة لها . وقدرت مخطوطات المنطقة بنحو خمسين ألف مخطوطة .

(٤)

من يقرأ فى الثبت ليستخرج ما صُنع منها لتوصيف المخطوطات على المنهج الوصفى الكافى ، ينتهى إلى أن بعضها أخذت طريقها للطباعة ، وتم نشرها وشيوعها بالفعل . وأكثر من هذا العدد فهارس أنجزت ، قد يصل عددها إلى نحو أربعين ، لم يُتح لها النشر ، لعدم توافر نفقات الطباعة ، وهى عُرضة للضياع ، وبالتالى يضيع الجهد العلمى المبذول فيها .

ألفت لجنة فى المكتبة الوطنية سنة ١٩٦٩ لإعداد فهرست شامل لمخطوطات المكتبة ، يظهر باللغة القومية ، ووضعت خطة عمل ، وبطاقة فهرسة مدروسة ولكن العمل لم يكتمل ، وما أنجز منه ضاع فى زحمة الزمن .

وكان مدير المكتبة الوطنية[٢] ، قد ذكر أن المكتبة فى سبيل فهرسة مكتبات القطر وتصويرها وإتاحتها للباحثين والعلماء ، وقد مضى على هذه الأمنية من السنين نحو عقدين ، دون أن يتوصل لشيء مرئى أو محسوس .

وهكذا يتضح أن المكتبة لم تستطع أن تكوّن كادراً كافياً لفهرسة المخطوطات ، مدرباً تدريباً جيداً . بدليل أنه بعد مضى ثلث قرن من الاستقلال ، لم نجد ما يصلح من الفهارس الجديدة باللغة العربية ، فلجأت إلى فهرس كنا قد ذكرناه فى صدر هذا البحث ، وهو فهرس فانيان الذى وضعه بالفرنسية سنة ١٨٩٣م ، وطبعه فى باريس ، فأعدت تصويره ونشرته سنة ١٩٩٥م .

إن كثيراً من هذه الفهارس التى لم يُتح لها فرصة الطباعة والنشر ، قد صنعها طلاب الجامعات الجزائرية ، وفاء لمتطلبات الحصول على شهادة "الليسانس" فى علم المكتبات وهى - وإن كان صانعوها على غير مران كاف ، ولا تجربة عملية وافية- قد كانت بإشراف أساتذة أكاديميين إلا أنها تحتاج إلى مراجعة ، وسرعة المبادرة لطباعتها وتوزيعها فى داخل البلاد ، وخارجها عن طريق الإهداء والتبادل العلمى ؛ خاصة أنها وضعت باللغة القومية ، مخالفة لما وضع من فهارس قبل الاستقلال .

(٥)

التحقيق والدراسة:

كشف الثبت المرفق عن اهتمام الجزائريين وغيرهم بنشر النصوص محققة ومدروسة عن نسخ مخطوطة فى مكتبات القطر وخارجه .

ولم يمض أقل من عقد من الزمان بعد الاستقلال حتى ابتدأ هذا الحقل فى الظهور للعيان . ثم توالت الأعمال تباعاً ، واحتوى الثبت منها على قدر يزيد على ثلثه قليلاً . وكلها فى موضوعات تهم الجزائر ، لأنها متصلة بتاريخها ، ونشاطها الثقافى والحضارى ، وتراجم علمائها ، ونظم أسواقها ، ورحلات عبر الجنوب الصحراوى .

وطبيعى ألا تأتى هذه المرحلة إلا بعد بدء الكشف الكافى عن أماكن المخطوطات وفهرستها ، وطباعة هذه الفهارس ، وإشاعتها لدى المتخصصين ، وإتاحة النسخ المخطوطة ، نعرض التحقيق والدراسة .

ولا شك فى أن دائرة هذا الحقل ستتسع حين تتم خدمة المخطوطات خدمة وافية ، على النحو الذى بيناه آنفاً ، وإلى أن يتاح للجادين ، فيزداد عدد العلماء الذين كان لهم مشاركة فى العلوم كافة ، وكانوا ضوءاً منيراً تدلى على ما أسدوا من إبداعات ومشاركات .

(٦)

النتائج والتوصيات:

قلنا إن الغموض ، قبل الاستقلال ، كان يكتنف المخطوطات العربية فى القطر . ولكن الصورة - بعده - أخذت تتضح بفضل أعمال الباحثين

الجادة المصوبة لخدمة المخطوطات فى البلاد ، وقد جمعناها فى ثبت أثبتناه فى آخر البحث ، وأدرنا عليه الحديث .

ولا شك فى أن العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين قد عمرت بهذه البحوث ، وأخذت فى الازدياد إلى أن بلغت القمة فى العقد الأخير من القرن ، والسنين التالية له من القرن الحالى .

ويبقى سؤال يلح علينا : هل بلغنا فى هذا المجال المنتهى المرجو؟

وقبل أن أجيب أود التعليق على الدعوى التى تطالب المسئولين بالاهتمام بإعادة المخطوطات التى خرجت من البلاد بوسائل مختلفة . وهو أمر ليس بالسهولة المتخيلة ، لأن قانون هيئة اليونسكو الدولية بهذا الخصوص ، بقي أن تكون هذه المخطوطات مذكورة فى سجلات المكتبة الملكية لها ، وأن تحمل أرقاماً وبيانات تدل عليها حتى يمكن المطالبة بإعادتها . وأنّا لنا مثل هذه البراهين والإثباتات؟

أليس من الأولى أن نبدأ فى خدمة المخطوطات التى بحوزتنا ، نضبطها ضبطاً مُحكماً ، خاصةً أننا نسمع أن هناك تسرباً للمخطوطات خارج البلاد .

إذ لابد من وجود قانون يحمى المخطوطات ، ويمنع هذا التسرب . وإن وجد لابد من تطبيقه تطبيقاً أميناً يحفظ ثروة البلاد لأصحابها .

ومن جانب آخر ينبغى أن نصل إلى مرحلة بناء الثقة بين الوزارة المختصة ومالكى المكتبات . ولعل فى إحياء إقامة المعارض احدى السبل للوصول إلى الثقة المنشورة ، والقناعة التامة لدى جميع الأطراف للتعاون فى مسألة تخص أصالة الأمة وجذورها ، التى تُفضي - مع الأخذ بالعلوم الحديثة- إلى مستقبل مُشرق .

تُذكر مسألة جمع المخطوطات فى مركز واحد . وفى رأيى ربما الأمر يكون متعذراً . والأسلم جمع المبعثر منها فى مجموعات ومراكز ، لكل منطقة مُتسعة مركز . وتحفظ فى أماكن مناسبة وبطريقة سليمة ، ويوفر لها وسائل حفظ وترميم وصيانة وتجليد متقدمة ، وآلات تصوير حديثة ، مع إبقاء ملكية أصحابها لها .

وتقوم المكتبة الوطنية بتكوين رعيل من الشباب المدرب على الفهرسة ، وخلق كادر كاف لها ، وطبع الفهارس المنجزة بعد مراجعتها . وفهرسة ما لم يُفهرس بعد ، وإشاعة هذه الفهارس بعد طبعها لدى المتخصصين فى داخل البلاد وخارجها .وإتاحتها للاطلاع والتصوير بنفقاتها أو بالتبادل بنسخ أخرى ، نثرى المحصول لدينا بصورات فوق ما نملك من مخطوطات أصلية .

إن الأمر يحتاج إلى همة عالية ، "وهبة" كبرى ، فى شكل مشروع قومى ، تُحشر له الإمكانات

دراسات ـــ\n\n

والخبرات كافة، شبيهة بـ"هبة" التعريب القومية الناجمة، تخدم هذه المخطوطات على النحو الذى بينا، وحينئذٍ ستعيد الجزائر مكانتها التراثية والثقافية التى كانت تتبوءها فى الماضى، وأنحجبت - إلى حين - فى عهدٍ بادَ، وانقضى أمره.

ثبت أعمال الباحثين

- رحلة محمد الكبير باى الغرب الجزائرى إلى الجنوب الصحراوى الجزائرى، تأليف أحمد بن هطال التلمسانى، تحقيق وتقديم محمد بن عبدالكريم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٩م. [فى ١٢٥ص].

- (كتاب) الوفيات، لابن قنفذ القسنطينى، المتوفى ٨٠٩هـ تحقيق عادل نويهض، بيروت، ١٩٧١م. [المؤلف صاحب كتاب طبقات علماء قسنطينة].

- المكتبة الجزائرية وعنايتها بالكتاب العربى المخطوط، د. محمد عبد القادر أحمد، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مجلد ١٨، الجزء الأول مايو ١٩٧٢م، ص١٨٩- ٢٠٤.

- مخطوطات جزائرية فى مكتبات استانبول، محمد بن عبد الكريم، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٢م. [زار تركيا، وصنف فيه نحو مائتى مخطوطة].

- التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية، لمحمد بن ميمون الجزائرى، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٣م [فى ٤١٣ص].

- ملاحظات حول الخزائن المخطوطة فى تونس والجزائر والمغرب، عبد الكريم الدجيلى، المورد (مجلة عراقية)، المجلد ٣، العدد ٤، بغداد، ١٩٧٤م، ص٢٩٦- ٣٠٢.

- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء فى المئة السابعة ببجاية، أحمد بن أحمد الغبرينى، المتوفى ٧٠٤هـ، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٥م. [فى ٣٦٢ ص].

- تقرير عن المخطوطات فى الجزائر وأماكن تواجدها، نوار جدوانى، المورد (مجلة عراقية)، المجلد ٥، العدد ١، ١٩٧٦م، ص٤٠- ٤٥.

- التراث العربى المخطوط فى الجزائر، محمد عبد القادر أحمد، نُشر فى كتاب، دراسات فى التراث العربى، أيضاً، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١٥١- ١٧٤.

- تاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجرى (١٦- ٢٠م)، جزءان، د. أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- البعد الحضارى للعقيدة عند الإباضية ، جردان ، فرحات الجعبيرى [باحث تونسي] ، نشر جمعية التراث بالقرارة فى الجزائر ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م . [ذكر فيه ما يزيد على خمسين مخطوطة] .

- فهرس مخطوطات مكتبة الشيخ صحراوى التهامى بربابنة (الأوراس) ، عبد الكريم عونى ، المورد (مجلة عراقية) ، المجلد ١٨ ، العدد ٣ ، ١٩٨٩م ، ص ١٧٤- ١٧٨ . [وصف فيه عشرين مخطوطة] .

- وضع المخطوطات العربية فى الجزائر ، محمود بوعياد ، فى ملتقى المخطوطات العربية فى العرب الإسلامى (وضعية المجموعات وآفاق البحث) ، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء (المغرب الأقصى) ، ١٩٩٠م ، ص١٨١- ١٩٢ .

- مخطوط "قانون أسواق مدينة الجزائر" عبد الله محمد بن الحاج الشويحات ، وناصر الدين سعيدونى ، جوليات جامعة الجزائر ، العدد ٥ ، ١٩٩٠ ، ١٩٩١م ، ص١١٧- ١٢٦ .

- أضواء على التراث المخطوط فى الجزائر ، جمال عزون أبو عبد الله الجزائرى ، مقال فى ثلاث حلقات ، جريدة المدينة المنورة ، الأعداد ٨٧٨٤ ، ٨٧٩١ ، ٨٨٢٦ ، يونية ١٩٩١م ، [قائمة اختارها من غير مكتبة] .

- مراكز المخطوطات فى الجزائر- أماكنها ومحتوياتها ، د . عبد الكريم عونى ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، المجلد ٣٩ ، الجزء الأول ، يوليو ١٩٩٥م ، ص٨- ٢٤ .

- فهرس «نظارة الشئون الدينية» بـ باتنة- الجزائر ، د . عبد الكريم عونى ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، المجلد ٣٩ ، الجزء الثانى ، يناير ١٩٩٦م ، ص٨- ٥٦ .

- المخطوطات الإسلامية التى لم تشملها أدوات الضبط الببليجرافى بالمكتبة الوطنية الجزائرية ، فتيحة بونفتيحة ، الموافقات (مجلة أكاديمية) ، العدد ٥ ، ١٩٩٦م ، ص٥٤٢- ٥٧٩ .

- المخطوطات فى الجزائر (تقرير) ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، المجلد ٤١ ، الجزء الأول ، ملف الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربى (الاجتماع الثانى) ، مايو ١٩٩٧م ، ص٣٥١- ٣٧٤ .

- التجربة الجزائرية فى فهرسة المخطوطات ، د . عبد الكريم عونى ، فى كتاب التجارب العربية فى فهرسة المخطوطات ، ندوة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ص١٩٣- ٢٧٠ .

- التراث الجزائرى المخطوط بين الأمس واليوم ، د . عبد الكريم عونى ، آفاق الثقافة والتراث (مجلة) ، العددان ٢٠ ، ٢١ (مداً) ، إبريل (نيسان) ١٩٩٨م ، ص ١٠٣- ١٢٩ .

- ثلاث رسائل مخطوطة حول الإباضية الميزابيين بالجزائر فى العهد العثمانى ، عرض وتقديم إبراهيم بحار ، المجلة التاريخية المغاربية ، العدد ٨٩ ، ٩٠ ، ١٩٩٨م ، ص ٢٣٩- ٢٥٢ .

- جهود الجزائر فى فهرسة المخطوطات العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن

العشرين ، عبد الكريم عونى ، عالم المخطوطات والنوادر ، مجلة ، المجلد ٤ ، العدد ١ ، ١٩٩٩م ، ص ٤- ٦٢ .

- المخطوطات العربية فى المكتبة الوطنية : الجزائر ، تونس ، هلال ناجى ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٩٩م . وكان قد نشر ما يخص الجزائر وهو كشاف فهرس "فانيان" فى عناوين المخطوطات - فى المورد - مجلة عراقية ، المجلد ٥ ، العدد ٣ ، بغداد ، ١٩٧٦م ، بعنوان : مخطوطات الجزائر ، ص ٢٠٧ - ٢٣٠ .

- فهرس مخطوطات زاوية أحمد بوزيد مولى القرقور بسريانة - ولاية باتنة - الجزائر ، د . عبد الكريم عونى ، آفاق الثقافة والتراث (مجلة) ، العددات ٢٧ ، ٢٨(معاً) ، كانون الثانى (يناير) ٢٠٠٠م ، ص ٦٣- ٩٠ وكان قد نشر ملخص الفهرس فى مجلة الأدب ، العدد ٣ ، معهد اللغة العربية وآدابها بجامعة قسنطينة ، الجزائر ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ٢١١- ٢٢٣ .

- جمعية التراث بالقرارة ومشروعها الطموح لحماية المخطوطات فى منطقة وادى ميزاب (الجزائر) ، د . عبد الكريم عونى ، آفاق الثقافة والتراث (مجلة) ، العددان ٢٩ ، ٣٠(معاً) ، تموز (يوليو) ٢٠٠٠م ، ص ١١٧- ١٣٦ .

- مركز المخطوطات فى الجنوب الجزائرى - إقليم توات نموذجاً ، د . عبد الكريم عونى ، آفاق الثقافة والتراث (مجلة) ، العدد ٣٤ ، يوليو (تموز) ٢٠٠١م ، ص ١١٣- ١٣٠ .

- مخطوطات السيوطى بالمكتبة الوطنية بالجزائر ، آسية وعيل ، عالم المخطوطات والنوادر (مجلة) ، المجلد ٧ العدد ١ ، الرياض ، ٢٠٠٢م ، ص ١٩٠- ٢٠٧ .

- فهرسة مخطوطات المكتبة القاسمية بالجزائر ، إعداد محمد فؤاد الخليل القاسمى الحسينى ، دار المغرب الإسلامى ، بيروت ، ٢٠٠٦م ، [فى ٥٤٢ ص] .

الهوامش

(١) يقع فى نحو ٧٠٠ صفحة من القطع الصغير ، ويصف نحو ألفى مخطوطة ، وهو نصف ما تحتويه المكتبة حالياً من مخطوطات . وقد عُد هذا الفهرس - آنذاك - الجزء الثامن عشر لمخطوطات المكتبات الفرنسية وفروعها ، لأن الجزائر ولاية من ولايات فرنسا!

(٢) هو الصديق د . محمود بوعياد ، فى بحثه : وضع المخطوطات العربية فى الجزائر ، فى ملتقى المخطوطات العربية فى المغرب الإسلامى ، مؤسسة الملك عبد العزيز ، الدار البيضاء ، ١٩٩٠م ، ص١٩٠ .